مفهوم الشعر وعناصرهُ في مُنجَزِ الجَواهري

الأستاذ المساعد الدكتور
عبد الإله عبد الوهاب العرداوي

الباحث
وسام حسن جاسم

جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية

مفهوم الشعر وعناصرهُ في مُنجَزِ الجَواهري

الأستاذ المساعد الدكتور **الباحث**

عبد الإله عبد الوهاب العرداوي **وسرام حسن جاسم**

جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخيرة النبيين أبي القاسم المصطفى الأمين (محمد)، وآله الطيبين الطاهرين. وبعد.

فقد شغل النقد لدى الشعراء ميداناً لكثيرٍ من الدراسات الأكاديمية وغيرها، وعلى الرغم من اختلافها في المعالجة، فإنَّها لم تألُ جهداً في إبراز دور الشاعر في إثراء الخطاب النقدي، ورفده بالرؤى والمواقف، ومن هنا كان سبب اختيارنا موضوع (مفهوم الشعر وعناصره في منجز الجواهري) ناشئًا من أهميَّة الشاعر التي ستنطلق في رحاب منجزه في هذا البحث ، ولا أظنُّ أنِّنا بحاجة إلى التعريف بشاعر العرب الأكبر (محمد مهدي الجواهري)، وذلك لما سطَّره من كمٍّ شعريٍّ ونثريٍّ شكَّلَ مُدوَّنةً، سجَّلت أحداث عصره محلِّياً وإقليمياً وعالميَّاً، وهذا من شأنه أن يضفي أهميةً لهذه الدراسة.

ومن الأسباب الأخرى التي دعتنا لاختيار هذا الموضوع، أنَّ الباحثين الأكاديميِّين وغيرهم، ممَّن اختاروا الجواهريَّ موضوعًا لدراساتهم، نظروا للشاعر من زاويةٍ الشعر فقط، واكتفوا بهذه النظرة في اشتغالهم على منجزه الإبداعي الشعري، مستظهرين منه ضروباً عدَّة من الخصائص الأسلوبية واللغوية، والسمات الفنية الجمالية والموضوعية التي انماز بها خطابه الشعري، ولكنَّهم غضَّوا النظر بوصفه شاعراً ذا رؤيةٍ وموقفٍ نقدي، إلا اللهم ما ورد هنا وهناك من إشارات جزئيَّة تكاد أن تكون قبسة العجلان ونهلة الظمآن، ولعلَّ من أظهر الدراسات التي سلَّطت الضوء على البعد النقدي في منجز الجواهري، أطروحة الدكتوراه للباحث "علي حداد حسين": (الشاعر العراقي الحديث ناقداً) التي طبعها بعد ذلك في كتابٍ سمّاه: (الخطاب الآخر مقاربة لأبجدية الشاعر ناقداً)، ولكنَّها اقتصرت على بعض الإلماعات والنظرات النقدية الجزئيَّة التي تُحسَب للجواهري، وله العذر في ذلك لسببين: الأول: أنَّهُ لم يقتصر في دراسته على الجواهري فقط، وإنما تناوله ضمن رعيلٍ من الشعراء الذين يمثِّلون توجُّهات قصيدة الشطرين – أو ما اصطلح عليها بالقصيدة العموديَّة-، فضلاً عن تناوله توجُّهات الرعيل الآخر النقدية، وأعني به روَّاد شعر التفعيلة التي اصطلح عليها بالشعر الحر، وهذا ما جعله يكتفي بنزرٍ يسير من آراء الجواهري النقديَّة، والآخر: أنَّ الجواهري كان قد صدر

له – بعد دراسة الدكتور حداد- مختاراته من الشعر العربي المُسمَّاة بـ(الجمهرة)، وفي تقديمه لها ذكر طائفةً من الآراء والملاحظات النقدية، وهذا ما لم يطلع عليه الدكتور حداد آنذاك، فيوظّفها في ثنايا دراسته، الأمر الذي شجَّعن ا في القيامِ باستجلاء البُعْدِ النقدي المتماهي في هذه المختارات، فضلاً عن تفوُّهاته النقديَّة التي انبثّت في بعض مقالاته الصحفيَّةِ، ومُقدَّماتِهِ التي صدَّر بها دواوينه الشعرية، وسيرتِهِ الذاتية التي دوَّنها في جزئين بعنوان (ذكرياتي)، وشتيت من المقابلات الصحفية التي كانت تُعقَدُ معه.

وإذا علمنا أنَّ نقد الشعر شعرًا، من أنماط النقد التي اختصَّ الشعراء بممارسته، وهذا ما دعا جلَّ الدارسين - إن لم نقل كلَّهم- في اشتغالهم بقضيَّة (الشاعر ناقداً)، إلى الوقوف على منجز الشاعر الإبداعي الشعري؛ لاستظهار آرائه النقديَّة منه، أو ما يقترب من فضاء النقد الأدبي وأجوائه، كان ذلك لنا مندوحةً انطلقنا منها إلى ما يمكنُ الإفادةُ من منجز الجواهري الشعري في تجلية البعد النقدي لديه، وعليه فقد أضحت هذه الدراسة مجمعاً لمنجزه الشعري والنثري، وبذا غرَّدت خارج سرب الدراسات التي تناولت الجواهري شعرًا وشاعرًا .

وانطلاقاً من تلك الأهمية أخذنا بجمع مادة البحث، وذلك بقراءة جميع دواوين الشاعر، وذكرياته، وما سوى ذلك من مقابلاتٍ معه نُشِرت في وسائل الإعلام، فضلاً عن دراسات حول الشاعر وشعره، وكذلك أفدنا من كتب النقد الأدبي بِشِقَّيها الموروث والمعاصر، وبعد أن اجتمعت مادةُ البحث، فَرَضَتْ بِطَبيعتِها أن نعالجَها على وفقِ مَنْهَجٍ جمع بين الاستقراء، والوصف، والتحليل. وعقدنا البحث لمفهوم الشعر وعناصره لدى الجواهري مقسما على عدة فقـــرات هي : 1. مفهوم الشعر 2- العناصر المضمونية وتتضمن : أ. الصدق الشعوري والفني ب. الخيال 3. العناصر الشكلية وتتضمن الوزن والقافية . ومن ثم كانت الخاتمة تذكيراً مختَصَراً لأهمِّ الأفكار النقدية التي استعرضناها لمفهوم الشعر وعناصره في منجز الجواهري، التي نرى أنها شكَّلت البعد النقديَّ فيه.

وختاما نقول إننا بذلنا جهداً متواضعًا في هذه الدراسة، لا ندَّعي فيه الكمال، فنلتمسُ العذر من كلِّ من يقرأُها - أساتذةٍ متخصِّصين، وقُرَّاءٍ مُثقَّفين- إن جانبنا الصواب، أو خاننا التعبير عما رمنا التعبير عنه، ولكن حسبنا أننا اجتهدنا وحاولنا، فان أصبنا فَبِنِعمةٍ من الله جل وعلا، وإن أخطأنا فعذرنا أنَّا بشر، وما توفيقنا إلا بالله العلي القدير، عليه توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون. والحمد لله رب العالمين.

مفـهومُ الشـعر وعنـاصـرُهُ

تعدَّدتِ المصادرُ الثقافيَّةُ والأدبيَّةُ التي نهلَ منها الجواهري وتأثَّرَ بها، فمن مصادرَ كلاسيكيَّةٍ تمثَّلتْ بالموروثِ الأدبي العربي والغربي، ومن مصادرَ حديثةٍ آنذاك تمخَّضَ عنها الأدبُ الأوربي بمذاهبه، وتيَّاراته المجدِّدة في مفاهيم الأدب السالفة، ورؤيتها في تناول قضايا الأدب وفنونه، ومنها مصادرُ الجواهري العصريَّة، وهو ما وصل إلى العراق - بلد الشاعر- من شعراء جماعة الديوان، وجماعة المهجر(١)، وأبولو(٢)، ولم يكن هذا التأثيرُ ممَّا اختصَّ به الجواهري دون غيرهِ من الشعراء، بل

كان أكثرُهم ممَّن يُتابعُ ويقرأُ ما تكتُبُهُ أقلامُ هؤلاء المُجدِّدين، ويُحاول تقليدهم، ممَّا يظهرُ حالةَ الضِيق بالموروثِ التقليدي في الأدب، وغيرِهِ من الفنون.

1. مفهوم الشعر :

ولو تتبَّعنا رأيَ الجواهري عن الشعر في شعرِهِ، ونثرِهِ، لوجدنا فيه تأثُّراً واضحاً بآراء تلك المذاهبِ الأدبيَّة ومبادئها، وهذا الأمرُ يقودُنا إلى حقيقةٍ مفادُها أنَّ الجواهريَّ لم يكوِّنْ مفهوماً واضحاً ومُحدَّداً للشعر؛ وذلك بسبب اختلافِ منطلقاتِ كلِّ مذهبٍ في آرائهِ عن الآخر. وقد نجدُهُ بعد طولِ تجربتِهِ الشعريَّة يركِّزُ على أحد تلك المذاهب في تحديد مفهوم الشعر، وإن كانَ تأثُّرُهُ بها لاشعوريَّاً، وهذا ما ينمُّ عن درايةٍ سطحيَّةٍ في تناولهِ مفاهيم الأدب ونقده، وعدم اهتمامهِ بتقنينها، أو وضعِ حدودٍ لها.

وعلى الرغم من أنَّ الجواهريَّ كان قد صرَّحَ مُجيباً عن سؤالٍ وجَّههُ إليه الدكتور علي جواد الطاهر، وهو ((هل المفروضُ بالشاعرِ أن يُكوِّنَ له مفهوماً عن الشعر؟))(٣)، بقوله: ((إنَّ الشاعرَ أغبى من يكونُ في تحديدِ الشعر))(٤)، والسببُ كما يراه يكمنُ في أنَّ الحالةَ الشعريَّةَ تسيطرُ على الشاعر، وتُشغلُهُ عن التفكيرِ فيه مفهوماً مجرَّداً يركنُ إليه، فهو أبعدُ من يكونُ في تعريفِ حياتِهِ التي يعيشها(٥)، نقولُ على الرغم من ذلك، كانت للجواهري رؤىً عِدَّةٌ بيَّنَ من خلالها مفهومَهُ للشعر، ذلك التصوُّرُ المجرَّدُ الذي يتباينُ فيه شاعرٌ عن آخرَ في مقصودِهِ منه، ويتَّضحُ منها أنَّه لم يكن بصددِ وضعِ تعريفٍ جامعٍ مانعٍ، وإنَّما هي إلماعاتٌ يبثُّها هنا في شعره، وتارةً تأتي عَرَضاً ضمنَ تفوُّهاته النقديَّة التي يبوح بها أثناء مساجلةٍ نقديَّةٍ بينه وبين أحد الأدباء أو النقاد، أو مع محاورٍ له في لقاء أعدَّه في مجلَّةٍ، أو صحيفة.

وقد عرَّف الجواهري الشعر ضمناً أثناء مساجلته الأديب (أحمد حامد الصرَّاف)، بأنَّهُ ((المملوءُ شعوراً وإحساساً))(٦)، وهو تعريفٌ على إيجازه يربطُ الشعرَ بالشعورِ والأحاسيس ربطاً قويَّاً، والذي توحيهِ كلمة (المملوء) للباحث أنَّها تعني الفيض الشعوري الذي يشحن ألفاظَ الشعر ممَّا يميِّزُها عن غيرها، وهذان المصطلحان - أي الشعور والإحساس- لا نجدُ عند الشاعر فيصلاً يميِّزُ بينهما ممَّا يُشكِلُ في فهم المقصود بكلِّ واحدٍ منهما عند المتلقِّي، ولكن ما يشفعُ له أنَّهُ ليس بصدد تعريفِ قضيَّةٍ علميَّةٍ حتى يُؤاخذُ عليه مثل هكذا تعريف، وإذا كان الجواهري يرى أنَّ الشعرَ بهيئته اللفظية هو المعبِّرُ عن الشعور، فلا يُطالبُهُ بأكثرِ من ذلك، وهذا ما أشار إليه في بيتٍ له من قصيدة (يا شعب) إذ قال:

يا شعرُ نمِّ على الشعور فكم وكم نمَّتْ على زُمرِ العواطفِ أحرُفُ(٧)

ومن النعوت التي أسبغها على شعره: (لسان العواطف)، وذلك في قوله من قصيدة (المجلس المفجوع):

ثق أنَّ أبياتي لسان عواطفي ثق أنَّ قلبي بينهنَّ مُذابُ(٨)

أو وصفه إيَّاه بـ(معرض العواطف)(٩)، أو تشبيهه له بالصفحة التي تُظهِر للقارئِ ما يُملى عليها من ترجمةٍ لأحاسيس الشاعر وعواطفه(١٠). ولما كان الشعرُ - بحسب رؤيته– تمظهرًا لشعور الشاعر، فيكون من الطبيعي أن يرى انبثاقه ((عملاً عفويَّاً خلقيّاً تتفجَّرُ به النفسُ بمجرَّدِ تهيؤ بواعثه))(١١)، وهذا ما يكون أساساً أوليًّا لموهبة الشاعر، ومن ثم تأتي المؤهِّلات المعرفية التي يتدارك بها فنَّه، فيكون بذلك عملاً قصديًّا يمثل كلَّ وعيه. وما ذكرناهُ من آراء للجواهري حول الشعر تؤكِّدُ التزامَهُ عنصرَ الصدقِ في التعبيرِ عن تجربة الشاعر، سواءً أكان واقعاً حقًّا، أم كان صدقاً فنياً يتوسَّلُ به الشاعر إلى المتلَقي لقدرته على تصوير التجربة الشعورية التي يعيشها(١٢)، فالصدق في وصف المشاعر أساسٌ في بلورته لمفهوم الشعر، وعليه يطالب أن يكون الشعر مرآةً تعكس شعور قائله للآخرين، وذلك في قوله من قصيدة (شوقي وحافظ):

وأريدُ شعراً ليس في أبياتهِ غير القلوبِ تبينُ للأحداقِ(١٣)

ولما كان الشاعر مهتماً بضرورة أن يكون الشعر منطلقاً من صدق الشاعر في تعبيره عن تجربته، فقد عدَّهُ أصدقَ الشعرِ، وذلك بقوله في قصيدة (الفداء والدم):

وأصدقُ الشعرِ ما هبَّتْ نسائمُهُ من الضميرِ وما شبَّتْ لواهبُهُ(١٤)

وعن انبعاثه من ذهن صاحبه، وتفجُّرِهِ عن معاناته للتجربةَ الصادقة، يُعرِّفُ الشعر على وفق هذا المعنى، بأداة الحصر (إلاَ) في قصيدته (إلى الرُّصافي):

وما الشعرُ إلا ما تفتَّقَ نورُهُ عن الذهنِ مشبوباً، عن الفكرِ حائرا

عن النفس جاشت، فاستجاشت بفيضها عن القلبِ مرتجِّ العواطفِ زاخرا

وما زجَّ في شتّى المهاوي بربِّهِ وقحَّمَهُ النهجينِ قصداً وجائرا(١٥)

فمصدر الشعر هو الذهن والفكر والنفس والقلب، فما يبثُّهُ من تساؤلاتٍ باحثةٍ عن أجوبة مقنعة، وعواطفَ معبِّرةٍ بصدقٍ عمَّا يجيش في خاطره، لا يزُجُّ به إلا لكثير من المضايقات التي يُعرَّض لها من قبل مجتمعه، وهذه هي نقطة الالتقاء العظمى بين (الفن)، و(الفكر)؛ لأنَّ التساؤلات التي يبثها الشاعر في شعره، تترك أفق البحث والمعرفة مفتوحاً، ولا تقدِّم يقيناً. وهذا هو الفكر الذي يدفع إلى مزيدٍ من الفكر(١٦)، فالأسئلة التي يحملها الشعر تحفِّزُ المتلقي على الإجابة؛ لما يمتلكه من موسيقى تبقى عالقةً في الأذهان ولاصقةً بالذاكرة(١٧).

وتُعدُّ المعاني التي وقف الجواهريُّ عندها في تعريفه للشعر، تكريساً لمضمونهِ الدلاليِّ، أو طبيعتِهِ، وهي بذلك لم تؤسِّسْ صورةً واضحةً للشعر، وهذا يعود - بحسب رأيي - إلى أنَّه لا يريدُ أن يُؤسس مفهوماً للشعر بقدر ما تحدوهُ الرغبة في الإسهام مع

من سبَقَهُ، أو عاصرَهُ ممَّنْ أدلى برأيِهِ في هذا المفهوم، فلذا تأتي آراؤُهُ المبثوثةُ في شِعرِهِ ونثرِهِ مُتقاربةً في المعنى، أي أنَّها تدورُ في المحصِّلةِ النهائيَّةِ حول العاطفة، ومرادفاتها التي يأتيها الشاعرُ في كلِّ مرَّةٍ بصياغةٍ جماليَّةٍ تتناسبُ والظرفَ الذي يمرُّ به، أو المناسبة التي دعته أن ينظم القصيدة في أجوائها.

2- العناصر المضمونية : أ. الصدق الشعوري والفني :

ولو تفحَّصنا فيما لهذه الآراء النقديَّةِ المبثوثة في منجز الجواهري من جذورٍ لمذاهب الأدب أخذ الشاعرُ يستلهم منها، لوجدنا أنَّ للمذهب الرومانسيِّ صدىً واضحاً في ما ذكرناهُ آنفاً، فتعريفُ الشعرِ لديهم لم يخرُجْ عمَّا قالَهُ (وردزورث) من أنَّهُ ((فيضُ المشاعرِ القويَّةِ))(١٨).

وفي تأكيد الجواهري على الصدق الشُعوريّ بصفتِهِ عنصراً مهمَّاً على ابتعاث الشعر، ما يُحيلُنا بصورةٍ غيرِ مباشرةٍ إلى حديث (كولردج) عن وظيفة عنصر الصِدق في الشعر؛ إذ يقول: ((إنَّ الحسَّ الصادقَ هو جسمُ العبقريَّةِ الشِعريَّةِ...والعاطفة حياتُها...وتشكل الكلّ في كيانٍ واحدٍ أنيقٍ مُدرَكٍ هو الشعرُ))(١٩) .

ومن شعره الذي يكشف عن تأثُّرِهِ بالمذهب الكلاسيكي الغربي الذي تأثر به جملةٌ من الشعراء العرب المحافظين، قولُهُ من قصيدة (يا دجلة الخير) محدِّداً طبيعة الشعر:

يا دجلةَ الخيرِ: إنَّ الشِعْرَ هدْهدةٌ للسمع ما بين ترخيمٍ وتنوينِ

عفواً يُردّدُ في رَفْهٍ وفي عَلَلٍ لحن الحياة رخيَّاً غيرَ مَلحونِ

«مزمارُ داودَ» أقوى من نبوَّتهِ فحوًى، وأبلغُ منها في المضامينِ(٢٠)

وهذه الأبيات تعرضُ مفهوم المحاكاة، الذي شكَّلَ حجر الزاوية بالنسبة للمذهب الكلاسيكي، وكذلك فيها عرض لطبيعة الشعر، من أنَّه فيضٌ من المشاعرِ العفويَّةِ تأخذُ طريقها إلى المتلقيِّ بوساطة اللغة، ولا مجال للافتعال واصطناع الظروف في تكوينِهِ، وإلا جاء مُشوَّهَ الخلقة، قصيَّاً عن التأثير في الآخرين. ومن المبادئ العامَّة لتنميةِ هذه الطبيعة غريزتا التقليد، واللحن والنَغم(٢١)؛ وذلك لأنَّ الشعرَ فنٌّ سمعيٌّ يحسُنُ بإتقانِ سبكِهِ بحيث تكون مخارج حروفِهِ متناسقةً، غيرَ مضطربةٍ كاللحن الجميل(٢٢).

ب. الخيال

ومن العناصر المهمَّة التي ذكرها الجواهريُّ في تعريفهِ الشعرَ هو (الخيال)؛ وقد عدَّهُ النُقَّادُ عنصراً لا غنى عنه في العمليَّة الشعريَّة؛ لما يقومُ به من نقلٍ غيرِ مباشرٍ للواقع المحسوس، فهو بهذا خلقٌ وإبداع(٢٣).

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الجواهريَّ أشارَ في أوائل سنيِّ تجربته الشعريَّةِ إلى الخيال، وإن كانت إشارةً عابرةً لا تعدو أن تصف الشعرَ بأنَّه حليةٌ لفظيةٌ تضفي على

عواطف الشاعر التي يصوغها، صورًا قشيبة يُزانُ بها شعره، وهذه الزينة اللغويَّة، لا تتشكَّلُ إلا من خلال الأساليب البيانيَّةِ والبديعيَّةِ، فلولاها لكانت اللُّغةُ قاصرةً عن تأديةِ هذه الوظيفَةِ - أي التصوير- وهذا ما نستشفُّه في قولِهِ من قصيدة (النشيد الخالد):

وما الشعرُ إلا ما يُزانُ به الهوى كما زيَّنتْ عُطلَ النحورِ القلائدُ(٢٤)

وفي قصيدةِ (النجوى) - وهي تنضمُّ إلى نفس المرحلةِ الزمنيَّة- يتابع الشاعرُ المعنى الشائعَ لمفهوم الخيالِ الذي تُسندُ الصورةُ إليه في الشعر، فقال:

وأنَّ من الشعر - وهو الخيالُ- عروشاً وأنَّهُمُ المالكونا(٢٥)

وقد لا نجدُ عند الجواهريِّ رؤيةً واضحةً عن الخيال تنمُّ عن إدراك تام لِحيثيَّات المصطلح؛ وذلك لأنَّ الخيالَ يشتملُ على مُقدِّماتٍ يقينيَّةٍ، وأخرى فاسدةٍ لا وجودَ لها، فيُسمَّى في الحالة الأولى بـ(التخييل) الذي يقومُ بالربطِ بين الأشياء والحقائق، فيما يُسمَّى في الحالة الثانية بـ(الوهم)، أو التوهُّم الذي يقوم على إظهار صلاتٍ زائفةٍ بين الأشياء(٢٦).

وإذا كان مصطلح الخيال يشملُ النَوعين، فلا بدَّ للجواهريِّ من تحديد ما يقصدُهُ من معنىً، وهذا ما نجدُهُ عندما يأخذُ بالمعنى الأوَّل للخيال - وهو التخييل- وذلك بربط الشعر بالصِدق الشعوري، نافياً عنه الوهمَ المجرَّد الذي لا يمتُّ لشعور صاحبِهِ بأي صلة، وإلى هذا المعنى أشار في قصيدة (حافظ إبراهيم):

وما الشعورُ خيالُ المرءِ ينظمُهُ لكنَّهُ قطعاتٌ من سجاياهُ(٢٧)

وعلى أساس ذلك يكونُ الخيالُ عاملاً مُساعداً للوظيفةِ الإخباريَّةِ لا الشِعريَّةِ، وبحسبها تكونُ وظيفتُهُ - أي الخيال- ((تفسيرَ الحقيقة، والحقيقة هي حقيقة النفس، ومشاعرها وأحاسيسها))(٢٨).

وفي قصيدة (يوم الشهيد) أوضح الشاعر ما يعنيه بالخيال مُفرِّقاً بينه والوهم الذي يقودُ صاحبَهُ إلى السراب الخادع، ومن ثمَّ البعد عن الشعور الذي يجيشُ في وجدانِهِ بتزويقٍ لفظيٍّ لا يمتُّ إلى الحقيقةِ بصلة، فيقول :

يومَ الشهيدِ وما الخيالُ بسادر بئسَ الخيالُ تقودُه الأوهامُ

الشعرُ يا يومَ الشهيد تجارِبٌ وبلاؤُها، لا لؤلؤٌ ونِظامُ

كَذِباً يُخيَّل أنَّ بارقة المُنى تنجابُ منها وحشةٌ وظَلامُ(٢٩)

فالشعرُ الذي يستندُ على إدراكٍ واعٍ للتجربةِ التي يمرُّ بها الشاعرُ هو الشعرُ الحقُّ المعبِّرُ عن صاحبِهِ؛ لأنَّ التجربةَ - بحسب (كولريدج) - ((تنبعُ من الإدراك إلا أنَّ الخيالَ الموحَّدَ يكونُ... أداةً مُساعدةً لإدراكٍ يمتلكُ رؤيةً أكبرَ))(٣٠)، وهذا المعنى هو ما تُتيحُهُ لنا أبياتُ الجواهري من فهم.

وكذلك أشار إلى عنصر الخيال بما يتَّفقُ والتجربة التي يمرُّ بها الشاعر مبيِّناً ماله من أهميَّةٍ في تصوير الحالة الشعوريَّة على ما هي، وذلك لارتباط الخيال بالألم

الذي يصدرُ عن التجربة الحقيقيَّة عند الشاعر، وذلك في قصيدة (خلَّفتُ غاشية القنوع)؛ إذ قال في بيتٍ منها :

هاتيك أبياتي يصوغُ خيالَها دون العناصرِ عنصرُ

(٣١)

وقد أشار الجواهري إلى عنايته بجزئيات تركيب الصورة، شأنه شأن كلِّ شاعر عظيم، يحرص على نقل فكرته وعاطفته معا إلى قُرَّائه وسامعيه(٣٢)، بقوله: ((عندما أدخل في أي موضوع تجيش نفسي جيشاناً فضيعاً متراكماً متشابكاً، فأنا أمين في خلع هذا التشابك في كل قصيدة دون تخطيط أو تصميم..فلا أحب أن تهرب مني ولا أريد أن يبقى منها شيء..إني لا أنتقل من صورةٍ إلى أخرى قبل أن أنتهي من الأولى))(٣٣).

3. العناصر الشكلية : الوزن والقافية :

وأما سائر العناصر التي تؤلِّفُ مفهوم الشعر من حيث الشكل، فقد نالت أهميةً عند الجواهري لا تقلُّ عن مكوِّنات المحتوى الشعري، ومن أهمِّ عناصر الشكل الشعري، الوزن والقافية، وإذا أردنا أن نبحث في شعره عن إشارةٍ صريحة لمصطلح (الوزن)، فلا نعثر إلا على بيت واحد، ذكر فيه (الوزن) بوضوح، وهو قوله من قصيدة (في السجن):

أوزانُ شعرِك بعضُ أو زانٍ حوتها باتّزانِ(٣٤)

ومن إشاراته الضمنية التي نزعم أنَّها تخصُّ الوزن والقافية، قولُهُ في قصيدة (إلى وفود المشرقيين تحيَّة)، لافتًا إلى طبيعة الوزن والقافية النَغَميَّة، وعلاقتها بالشعور:

..به من نسمةِ الإصباح عِطرٌ ومن سَحَرٍ، ومن شَفَقٍ خِضابُ

على السجَعِ الرتيب ترِفُ دُنيًا مسجَّعةٌ أغانيها رِتابُ

وبين فواصلِ منه جِراحٌ وآفاقٌ، وأَطماحٌ رغاب(٣٥)

فـ(السجع الرتيب) – بحسب ما نفهمه والسياق الشعري الذي يسمح لنا بهذا التقويل- إشارةٌ قصد بها إلى خصيصة (الرتابة) التي يشترك فيها الوزن والسجع؛ لأنَّ (السجع) - كما عرَّفه الدكتور (ماهر مهدي هلال)- لا يخلو من أن يكون ((صورة نغمية يراد بها جعل الكلام بصيغة متوافقة))(٣٦)، وهذا التوافق، أو (الرتابة) – بحسب تسمية الجواهري- لا تكون إلا لخاصيَّة (الإيقاع) الموسيقيَّةِ التي ينضبطُ الشعرُ على وفقها، وهو ((توظيفٌ خاصٌّ للمادَّةِ الصوتيَّةِ في الكلام يظهرُ في تردُّدِ وحداتٍ صوتيَّةٍ في السياق على مسافاتٍ مُتقايسةٍ بالتساوي، أو بالتناسبِ لإحداث الانسجام))(٣٧)، فالتكرار الرتيب الذي تحدثه الأوزان من أهم سمات الإيقاع، لأنَّه يعتمد الوزن الذي يُعَدُّ أهم عنصر في تشكيل الإيقاع المتكرر لتوليد (التوقّع)، والـ(فواصل) قصد بها القوافي التي تفصل بيتًا عن آخر في القصيدة.

والجواهريُّ إذ يُولي أهميَّةً للوزنِ، فلأنَّهُ يفصحُ عن أصالة الشاعر في نظمه للشعر؛ ولذا عدَّ وجودَهُ في الشعر ((ليس من اختراع الشعراء، إنَّه على الأصحِّ ملتقطٌ من الطبيعة))(٣٨)، وحجَّتُهُ في ذلك الاستنتاج بأنَّه ((إذا خطرَ على بال واحدٍ أن يخونَ الطبيعة ويقضمَ من بيت الشعر مقطعاً ولو من حرفٍ، شعرَ للتوِّ بنشازٍ صدمَ أذُنَهُ))(٣٩).

وكذلك لا يغفلُ عن دور القافية في تكوين مفهوم الشعر، فهي والوزن تشكّلان القيد الذي بوساطته يتميَّز الشعر عن النثر(٤٠)، وقد أولاها أهميَّةً ربما كانت أكثر من الوزن، بأمارة أنَّه ذكرها كثيرًا في شعره(٤١)، فضلاً عن التزامه التطبيقيِّ لها في منجزه الشعري، حتّى أنَّ ظاهرة (التصريع) عُدَّت ملمحًا أسلوبياً طاغيا فيه، وقد نذهب إلى أنَّ اهتمامه بالقافية، مثَّل تحدِّياً لمن يرى أنَّها والوزن، تقف عقبةً أمام الشاعر المبدع(٤٢)، وهو بهذا لا يرى وجاهة أي سبب يتذرَّعُ به الشعراء الجُدُد في إسقاط أحدهما، أو كليهما معاً في نظم الشعر؛ لأنَّ التجديد في الشعر بحسب رأيِهِ ((يجب أن يكونَ مُقيَّداً بكلِّ قيودِ الفنِّ من وزنٍ وقافيةٍ وأسلوب موسيقي وجمال في الأداء، فالمشي أسهلُ من الرَقص، ولكن الرقص هو الفنُّ مع أنَّهُ مشيٌ))(٤٣)، وبما أنَّ الوزنَ والقافيةَ شكَّلا حضوراً مهيمناً في منجزه الشعري، كان ملتفتاً إلى دورهما في إضفاء ((رنَّة الشعر الموسيقيَّة التي تنزلُ بها القافية على أعماق القلب بلا إذن))(٤٤).

ويُحدِّدُ الجواهري المعيارَ القِيَمي للشعر العربي والعالمي، الذي بوجوده ((يبقى [أي الشعر] على أفواه الأجيال تتمثل به، وللاستشهاد، والذي يحفظه ويديمه على الأفواه هو الرنَّة الموسيقيَّة في القافية والبحر والوزن، وفي كون الكلمة جنب أختها، وفي كون القافية لا تتزحزح من مكانها))(٤٥)، وما أشار إليه بشأن القافية، يؤكِّد اهتمامه بالفكرة التي ينبني عليها النص الشعري، إلى جانب المضمون، فليس الشعر تجميعاً لقوافٍ معينة على وزنٍ معيَّن، وإنَّما هو تواشجٌ بين الاثنين معاً، وعليه لا يمكن التضحية بأي من العناصر التي تكوِّنُ الشكل أو ترفد المضمون، فضرورة توافرهما في الشعر الجيِّد، هو الذي يكفُلُ نجاح تأثيرِهِ في المتلقِّي، و بهذا الصدد يقول: ((أنا لا أفهمُ شعراً يُحاولُ أن يبلُغَ المستوى الثوري، وهو مهلهلُ الأسلوب، ضحل التجربة، غير قادرٍ على الدفع والإقناع، ولا الإثارة بطبيعة الحال))(٤٦). وحين تكتمل عناصر الشعر الجيِّد، وتتواشجُ فيما بينها مكوِّنةً ذلك المعمار الجمالي، لا يعدُّهُ بعد ذلك إلا من أجلَّ مخلوقات الله؛ لما يتركُه من تأثير في الآخرين، كما يتركُ الغيثُ، أو الشمسُ آثارَهُما في الطبيعة، وذلك بقوله في قصيدة (حافظ وشوقي):

وأجلُّ ما خلق الإلهُ لخلقِهِ ... وحسابُ فضلِ اللهِ غيرُ مُطاقِ

الشعرُ في تأثيرِهِ، والغيثُ في ... آثارِهِ، والشمسُ في الإشراقِ (٤٧)

ونحن إذ استقصينا مفهومَ الشعر وعناصرَهُ عند الجواهري نؤثر أن يكون استشهادَنا بهذين البيتين مسكَ الختامِ لهذا المبحث، لعلَّنا وفِّقنا في تقديم صورةً واضحةً ألمَّتْ بأبعادِ فكرِ الجواهري النقدي بخصوص مفهوم الشِعر وعناصره.

الخاتمة

لعلَّ المهمَّة التي اضطلعنا بها في هذا البحث، هي التي تُعرِب عن مدى أهميَّة الموضوع الذي تناولناه، ألا وهو الكشف عن نقاب البعد النقدي الذي تموضع في منجز الشاعر العربي الكبير (محمد مهدي الجواهري)، فالدراسات التي انصبَّت عليه - على الرغم من كثرتها- لم تلتفت إلى هذا الجانب، وبعد أن مخرنا عُباب منجزه بأجناسه المتنوعة، وتحليل ما أمكننا الوقوف على تحليله، إذ لم يحِدِ الجواهري عن العناصر الشكليَّة التي تتألَّف من الوزن والقافية، في تكوين مفهوم الشعر، فضلاً عن عنايته بالعناصر التي تُشكِّلُ محتواه، والمتمثِّلة بالصدق الشعوري والفني، والخيال الذي يتكفَّل تشكيل الصورة الشعرية.

هوامش البحث

(١) ظ: شعراء الغري: 10: 147،
(٢) ظ: الجواهري ذكريات أيامي، فاروق البقيلي، دار الفارابي، بيروت، مكتبة الثورة العربية، بغداد، 1974م: 82-84 .
(٣) الشاعر الكبير الجواهري يتحدّثُ للدكتور الطاهر، م الكلمة، ع2، س4، بغداد، آذار، 1972م: 35 .
(٤)م.ن: 35
(٥) ظ: م.ن: 35 - 36، وقول الجواهري يقاربُ قول سقراط في الشأن نفسه: " قد سألتُ كُلاً منهم عمَّا عناه بشعره، فلم يكن منهم من استطاع الإجابة على [كذا] سؤالي هذا، ولقد جمعني وإيَّاهم مجلسٌ ضمَّ كثيرًا من المعجبين بهم وبأشعارهم، فلم يكن بين الحضور رجلٌ إلا وهو أقدرُ على التحدُّث عن تلك الأشعار من الشعراء أنفسهم". قواعد النقد الأدبي، لاسل آبر كرومبي، تر: محمد عوض محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986م: 1 .
(٦)م الحيرة، النجف، 1927م، مج1/ج2: 57 .
(٧)الديوان: 1/ 73 .
(٨)م.ن: 1/ 505 .
(٩)ظ: م.ن: 2 / 253 .
(١٠)ظ: م.ن: 1 / 439 .
(١١)الجواهري دراسة ووثائق، د.محمد حسين الأعرجي، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط 1، 2002م: 379.
(١٢)ظ: مقابلة أدبية مع محمد مهدي الجواهري أجرتها حميدة نعنع، م الآداب، ع 12، ديسمبر 1978م :6. وفيها قوله: ((لقد كتبت شعراً غزلياً في منتهى الروعة والجرأة دون أن أعرف المرأة...كانوا يظنون أنني أكتب ما أكتبه عن تجارب حقيقية. لكن هذا غير صحيح)). وظ: ذكرياتي: 2/ 50 .
(١٣)الديوان: 1/ 304 .
(١٤)م.ن: 4/ 304 .

(١٥)م.ن: 3/ 75 .
(١٦) ظ: الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989م:73 .
(١٧) ظ: خصائص الأسلوب في شعر الجواهري، فارس عزيز مسلم، (أطروحة دكتوراه)، كلية التربية، جامعة بابل، 2008م: 77 .
(١٨)أقاصيص شعريَّة وجدانيَّة، وردزورث، تر: عبد الحكيم حسَّان، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1971م:434.
(١٩)سيرة أدبيَّة ، كولريدج، تر: عبد الحكيم حسَّان، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1971م: 252.
(٢٠)الديوان: 5 / 89 .
(٢١)ظ: المذاهب النقدية دراسة وتطبيق، د.عمر الطالب، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1993م: 17 .
(٢٢)ظ: الأسس الجمالية في النقد العربي، د.عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، بغداد، ط3، 1986م: 358.
(٢٣)ظ: دراسات بلاغية ونقدية، أحمد مطلوب، دار الرشيد، بغداد،1980م: 347 .
(٢٤)الديوان: 1/ 196.
(٢٥)م.ن: 1/ 226 .
(٢٦)ظ: التنظير النقدي والممارسة الإبداعيَّة، د. محمد عبد الحي ، منشأة المعارف بالإسكندريَّة،2001م: 153 .
(٢٧)الديوان: 2 / 120 .
(٢٨)التنظير النقدي والممارسة الإبداعيَّة: 154 .
(٢٩)الديوان: 3 / 270.
(٣٠)تطور الشعر العربي الحديث في العراق إتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج: 364 نقلاً عن:
Walsh , the use Imagination , London , 1959.P.14,Wihlam ،م.
(٣١)الديوان: 4 / 218 .
(٣٢)ظ: أصول النقد الأدبي، د. أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1964م: 242 .
(٣٣)الشاعر الكبير الجواهري يتحدّثُ للدكتور الطاهر، م الكلمة، ع2، س4، بغداد، آذار، 1972م: 46 .
(٣٤)الديوان: 2/ 325 .
(٣٥)الديوان (دار الرشيد للطباعة 1977م) : 6 / 163.
(٣٦) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، دار الحرية، بغداد، الجمهورية العراقية، 1980م:232.
(٣٧)في مفهوم الإيقاع، محمد الهادي الطرابلسي ، حوليات الجامعة التونسيَّة ، ع32 ، 1991م : 21.
(٣٨)الجواهري سمفونية الرحيل: 262.
(٣٩)م.ن: 262 .
(٤٠)ظ: الديوان: 5/ 362- 363 قصيدة (يا ابن الفراتين) .
(٤١)وردت كلمة (القوافي) في ديوان الجواهري (طبعة وزارة الإعلام) في (خمسين بيت)، ومفردة (قافية) في (تسعة أبيات)، والمتأمل يجد أنَّ الشاعر كان يكني بها عن الشعر .
(٤٢)ظ: الجواهري رحلة الشعر والحياة، سليمان سليم البواب، دمشق، 2004م: 105 .
(٤٣)الجواهري شاعر العربية: 49 .
(٤٤)الديوان (دار الرشيد للنشر1980م): 7/ 165.نقلاً عن: ج مرآة العراق، س1، ع3، 1كانون الأول 1924م: 6 .
(٤٥)الشاعر الكبير الجواهري يتحدث عن الأدب المكشوف والشعر الحر وشؤون أخرى، ج الحرية، ع 1026، 1957م: 3. وقول الجواهري الآنف الذكر إنما يُذكرنا بقول (شوبنهاور): "يُشترط أن تتوثَّق

العلاقة بين الفكرة والقافية، وأن ترتبطا باطنياً، أما إذا بحثنا عن الأفكار من أجل القوافي فإنَّه ينشأ عن ذلك شعر أجوف الرنين...أما إذا تتابعت الأفكار في تسلسل طبيعي مسترسل على إيقاع الكلمات وتناغم القوافي فإنَّه يكون للغة الشعر تأثير السحر...وهذا من شأنه أن يعطي قدرة فائقة على التأثير في الخيال". في الشعر الأوربي المعاصر، د.عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1980م: 138.

(٤٦)مع رجال الفكر، م الفكر، بغداد، ع5، تشرين الثاني، 1958م: 67 .

(٤٧)الديوان: 1/ 304 .

المصادر والمراجع

- **الأسس الجمالية في النقد العربي، د.عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافيَّة العامة، بغداد، ط3، 1986م.**
- **أصول النقد الأدبي، د.أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1964م.**
- **أقاصيص شعريَّة وجدانيَّة، وردزورث، ترجمة: عبد الحكيم حسَّان، دار المعارف، القاهرة، ط1،1971م.**
- **تطوُّر الشعر العربي الحديث في العراق إتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج، د.علي عباس علوان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة الكتب الحديثة (91)، 1975م.**
- **التنظير النقدي والممارسة الإبداعيَّة، د. محمد عبد الحي، منشأة المعارف بالإسكندريَّة، 2001م.**
- **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د.ماهر مهدي هلال، دار الحرية، بغداد، 1980م.**
- **الجواهري جدل الشعر والحياة، د.عبد الحسين شعبان، دار الكنوز الأدبية، لبنان. ط1، 1997م.**
- **الجواهري دراسة ووثائق، د.محمد حسين الأعرجي، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط 1، 2002م.**
- **الجواهري ذكريات أيامي، فاروق البقيلي، دار الفارابي، بيروت، مكتبة الثورة العربية، بغداد، 1974م**
- **الجواهري سمفونية الرحيل، د.خيال محمد مهدي الجواهري، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1999م.**
- **الجواهري شاعر العربية، عبد الكريم الدجيلي، مط الآداب، النجف الأشرف، 1972م.**
- **ديوان الجواهري، جمع وتحقيق: د.إبراهيم السامرائي، ود.علي جواد الطاهر، ود.مهدي المخزومي، ورشيد بكتاش، ج 1-5 وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، مطبعة الأديب البغدادية 1973-1974م، ج6 وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للطباعة 1977م، ج7 وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر1980م.**
- **ديوان الجواهري، طبعة منقحة في خمسة مجلدات، مراجعة: يوسف البهادي، دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت – لبنان، 2000م.**
- **ديوان الجواهري، مطبعة الغري، النجف، 1935م.**
- **ذكرياتي، محمد مهدي الجواهري، منشورات دار المجتبى، قم، ط1، 2005م.**
- **سيرة أدبيَّة، كولريدج، ترجمة: عبد الحكيم حسَّان، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1971م.**
- **الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989م.**
- **شعراء الغري أو النجفيات، علي الخاقاني، المطبعة الحيدرية، النجف، 1954م.**

- **قواعد النقد الأدبي، لاسل آبر كرومبي، ترجمة: محمد عوض محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986م.**
- **المذاهب النقديَّة، ماهر حسن فهمي، مطبعة النهضة المصريّة، القاهرة، 1962م.**

ثانياً - الأطاريح والرسائل الجامعية :

- **خصائص الأسلوب في شعر الجواهري، فارس عزيز مسلم، (أطروحة دكتوراه)، كلية التربية، جامعة بابل، 2008م.**

ثالثا- الدوريات (المجلاّت والبحوث):

- **الشاعر الكبير الجواهري يتحدّثُ للدكتور الطاهر، مجلة الكلمة، ع 2، س4، بغداد، آذار، 1972م.**
- **في مفهوم الإيقاع، محمد الهادي الطرابلسي، حوليات الجامعة التونسيَّة، ع32، 1991م.**
- **مع رجال الفكر (لقاء مع الجواهري) أجراه: محمد جواد الغبَّان، مجلة الفكر، بغداد، ع 5، تشرين الثاني، 1958م.**
- **نهضة الأدب النجفي أو الشاعر محمد سعيد الحبوبي، محمد مهدي الجواهري، مجلة الحيرة، كانون الأول وشباط 1927م.**
- **مقابلة أدبية مع محمد مهدي الجواهري، أجرتها: حميدة نعنع، مجلة الآداب، ع 12، ديسمبر1978م.**